

## أمينة قطب وعائلتها: قصة بلاء وابتلاء محمد يوسف عدس

الشاعرة المجاهدة أمينة قطب هي أخت الشهيد سيد قطب صاحب الظلال ، كتبت هذه القصيدة الرائعة بعد استشهاد زوجها المناضل كمال السنائيري ، تعبر عن ذكريات مفعمة بحب نادر ووفاء وثبات وإخلاص .. تتساءل وهي تنوء بلوعة الفراق وتعلل النفس ببقاء آخر في رحاب الجنة ؛ فلم تسعد بصحبته في الدنيا إلا ستة أعوام بعد أن ظلت تنتظر إطلاق سراحه من السجن عشرين عاما .. إنها تحكي قصة فراق أليم يمتزج بأمل في لقاء كريم في ظلال من رحمة الله ورضوانه .. تقول:

هل ترانا نلتقي أم أنها \*\* كانت ألقيا على أرض السراب؟!  
ثم ولت وتلاشى ظلها \*\* واستحالت ذكريات للعذاب  
هكذا يسأل قلبي كلما \*\* طالت الأيام من بعد الغياب  
فإذا طيفك يزنو باسمًا \*\* وكأني في استماع للجواب  
أولم نمض على الدرب معًا \*\* كي يعود الخير للأرض اليباب  
فمضينا في طريق شائك \*\* نتخلى فيه عن كل الرغاب  
ودفنا الشوق في أعماقنا \*\* ومضينا في رضاء واحتساب  
قد تعاهدنا على السير معًا \*\* ثم عاجلت مجيبًا للذهاب  
حين ناداك رب منعّم \*\* لحياة في جنان ورحاب  
ولقاء في نعيم دائم \*\* بجنود الله مرحى بالصحاب  
قدّموا الأرواح والعمر فداً \*\* مستجيبين على غير ارتياب  
فليعد قلبك من غفلاته \*\* فلقاء الخلد في تلك الرحاب  
أيها الراحل عذراً في شكاتي \*\* فإلى طيفك أنات عتاب  
قد تركت القلب يدمي مثقلاً \*\* تائها في الليل في عمق الضباب  
وإذا بي أطوي وحيداً حائراً \*\* أقطع الدرب طويلاً في اكتئاب  
فإذا الليل خضمّ موحشٌ \*\* تتلاقى فيه أمواج العذاب  
لم يعد يبترق في ليلي سناً \*\* قد توارت كل أنوار الشهاب  
غير أنني سوف أمضي مثلما \*\* كنت تلقاني في وجه الصعاب  
سوف يمضي الرأس مرفوعاً فلا \*\* يرتضي ضعفاً بقول أو جواب  
سوف تحدونني دماء عابقات \*\* قد أنارت كل فج للذهاب.

جدير بالذكر هنا أن أمينة قطب قبلت أن يُعقد عليها في لقاء جمعها في السجن بأخيها سيد قطب مع زميله كمال السنائيري ، رغم أنها كانت تعلم أن السنائيري محكوم عليه بالسجن المؤبد [خمسة وعشرين سنة] ؛ فقد رأت في قبولها الزواج منه تحدياً للسلطة العسكرية الغاشمة ، وإعلاناً لرفضها افتراءاتها وفساد أحكامها القضائية المسيئة ؛ فلا السنائيري ولا سيد قطب ارتكبا أي جريمة يستحقان عليها السجن .. اللهم إلا اختلاف الرأي ورفض الاستبداد وقول الحق أمام حاكم ظالم..!

تنتمي هذه الشاعرة إلى أسرة عريقة في الجهاد الفكري والمعاناة .. هي وأخوها سيد قطب الذي تم إعدامه بتهمة ملفقة سنة ١٩٦٦م هي التآمر لقلب نظام الحكم .. وأختها حميدة قطب وأخوها الثاني محمد قطب ، وزوجها كمال السنانيري الذي حُكِمَ عليه بالسجن ٢٥ سنة خرج بعدها لينعم بصحبة زوجته ستة أعوام فقط ولكنه أعيد إلى السجن ليموت من شدة التعذيب سنة ١٩٨١م ، وقد ادَّعوا كذباً أنه انتحر .. حدث هذا في السادس من نوفمبر سنة ١٩٨١ ، وسُلِّمَت جثته إلى ذويه شريطة أن يوارى التراب دون إقامة عزاء..

فكتبت أمينة قطب تجربتها الأليمة في قصيدتها "هل ترانا نلتقي" .. ثم اشتغلت بكتابة المقالات والشعر بعد وفاة أخيها وزوجها ؛ وألّفت ديواناً بعنوان "رسالة إلى شهيد" الذي يصور مدى صبر أخيها وزوجها في وجه التعذيب ومدى ظلم وجبروت من خانوا الدين والوطن وعذبوا زوجها وأخاها ومئات من الشباب الأبطال.

ومن بين أشهر ماكتبته أمينة قطب بعد القصيدة آنفة الذكر قصيدة أخرى بعنوان " ما عدت أنتظر " تدوب فيها روح الشاعرة حباً ووفاءً على أمل في لقاء أبدي في الفردوس الأعلى تقول فيها :

ما عدت أنتظر الرجوع ولا مواعيد المساء  
ما عدت أحفل بالقطار يعود موفور الرجاء  
ما عدت أنتظر المجيء أو الحديث ولا اللقاء  
ما عدت أرقب وقع خطوك مقبلاً بعد انتهاء  
وأضيء نور السلم المشتاق يسعدُ بارتقاء  
ما عدت أهرع حين تُقبل باسمًا رغم العناء  
ويضيء بيتي بالتحيات المشّعة بالبهاء  
وتعيد تعداد الدقائق كيف وافانا المساء؟  
وينام جفني مطمئناً لا يورقـه بلاء  
ما عاد يطرق مسمعي في الصبح صوتك في دعاء  
ما عاد يرهف مسمعي صوت المؤذن في الفضاء  
وأسائل الدنيا: ألا من سامع مني نداء؟  
أتراه ذاك الشوق للجنات أو حب السماء؟  
أتراه ذاك الوعد عند الله؟ هل حان الوفاء؟  
فمضيت كالمشتاق كالولهان حباً للنداء؟  
وهل التقيت هناك بالأحباب؟ ما لون اللقاء؟  
في حضرة الديان في الفردوس في فيض العطاء؟  
أبداً حقّ قد تجمعتُم بأمنٍ واحتماء؟  
إن كان ذاك فمرحباً بالموت مرحى بالدماء  
ولسوف ألقاكم هناك وتختفي دار الشقاء  
ولسوف ألقاكم أجل .. وعدّ يصدّقه الوفاء

وَنُثَابُ أَيَّامًا قَضِينَاهَا دَمَوْعًا وَابْتِغَاءً  
وَسُنْحَتْمِي بِالْخُلْدِ لَا نَخْشَى فِرَاقًا أَوْ فَنَاءً

وَيَتَمَطَّى الزَّمَنُ بَطِيئًا فِي حَرَكَتِهِ حَتَّى لَتَبْدُو السَّاعَةَ يَوْمًا وَالْيَوْمَ عَامًا .. وَتَشْعُرُ أَمِينَةُ قَطْبٍ  
بِوَطْأَةِ الْوَحْدَةِ وَأَلَمِ الْفِرَاقِ يَتَعَاضَمَانِ فِي قَلْبِهَا الْمَكْلُومِ ، بَعْدَ رَحِيلِ زَوْجِهَا فَكَتَبَتْ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ  
تَعْبِيرًا عَنِ شَوْقِهَا إِلَى لِقَائِهِ ، وَكَأَنَّهَا تَسْتَحِثُّهُ أَنْ يَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَقْصِرَ أَمْدَ وَحْدَتِهَا وَيُلْحِقَهَا بِهِ فِي  
جَنَّةِ الْفَرْدُوسِ .. قَالَتْ:

هَلَّا دَعَوْتَ اللَّهَ لِي كَيْ أَلْتَقِيَ .. بِرَكَابِكُمْ فِي جَنَّةِ الرِّضْوَانِ  
هَلَّا دَعَوْتُمْ فِي سَمَاءِ خُلُودِكُمْ .. عِنْدَ الْمَلِيكِ الْقَادِرِ الرَّحْمَنِ  
أَنْ يَجْعَلَ الْهَمَّ الثَّقِيلَ بَرَاءَةً .. لِي يَوْمَ الْحِسَابِ فَقَدْ بَقِيْتُ أَعَانِي "

لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ أَنَّ سَيِّدَ قَطْبٍ أَخَ أَمِينَةَ الْأَكْبَرِ وَكَفِيلَهَا وَمَرْبِّيَهَا قَدْ أَعْدَمَهُ عَبْدُ النَّاصِرِ سَنَةَ ١٩٦٦ م  
فِي تَهْمَةٍ مَلْفَقَةٍ كَاذِبَةٍ تَزْعَمُ أَنَّهُ تَأَمَّرَ لِقَلْبِ نِظَامِ الْحُكْمِ- وَهَنَّاكَ أَدْلَةٌ كَثِيرَةٌ عَلَى بَرَاءَةِ سَيِّدِ قَطْبٍ ؛  
فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْحِثَ هَذِهِ النِّقْطَةَ بِالذَّاتِ فَلْيَقْرَأْ مَا كَتَبَهُ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ عَبَّاسٌ عَنِ سَيِّدِ قَطْبٍ ، الَّذِي  
لَخَّصَ الْقَضِيَّةَ الْحَقِيقِيَّةَ فِي عِبَارَةٍ قَصِيرَةٍ كَاشِفَةٍ صَدَّرَ بِهَا وَاحِدَةً مِنْ مَقَالَاتِهِ .. قَالَ: " لَيْسَتْ  
الْغُرَابَةُ فِي ضِرَاوَةِ الصِّرَاعِ .. بَلْ فِي ضِرَاوَةِ الْكُذْبِ وَالْخَسَةِ وَالْخِدَاعِ .. "

أَمَّا زَوْجُهَا كَمَالُ السَّنَانِيرِيِّ فَقَدْ قَضَى نَحْبَهُ -كَمَا أَشْرَنَّا- فِي السِّجْنِ عَامَ ١٩٨١ م مِنْ هَوْلِ  
التَّعْذِيبِ .. وَكَانَ عَلَى أَمِينَةَ قَطْبٍ أَنْ تَحْتَمِلَ الْعَيْشَ بِدُونِهِ ٢٨ عَامًا أُخْرَى حَتَّى لَحِقَتْ بِهِمَا سَنَةَ  
٢٠٠٧ م ..

وَلَكِي تَكْتَمِلُ صُورَةُ الْبَلَاءِ وَالْإِبْتِلَاءِ الَّذِي حَلَّ بِأَفْرَادِ هَذِهِ الْأُسْرَةِ جَمِيعًا بِلَا اسْتِثْنَاءٍ- نَتِيجَةُ  
إِصْرَارِهِمْ عَلَى الْحَقِّ وَقَوْلِ الْحَقِّ وَفَعْلِ الْحَقِّ - فَلَنَرَى مَاذَا حَدَّثَ لِأَخْتَيْهِمَا الصَّغْرَى حَمِيدَةَ قَطْبٍ ،  
وَلشَقِيقَيْهِمَا الْآخَرَ مُحَمَّدَ قَطْبٍ.

أَمَّا حَمِيدَةُ قَطْبٍ فَقَدْ اعْتَقَلَتْ سَنَةَ ١٩٦٥ م وَحُكِمَ عَلَيْهَا بِالْأَشْغَالِ الشَّاقَّةِ عَشْرَ سِنَوَاتٍ  
وَكَانَتْ التَّهْمَةُ الْمَوْجُوهَةَ لَهَا هِيَ الْمُسَاهَمَةُ فِي لَجْنَةِ لِإِعَالَةِ أَسْرَ الْمُعْتَقَلِينَ مِنَ الْإِخْوَانِ  
الْمُسْلِمِينَ .. وَخَرَجَتْ مِنَ الْمُعْتَقَلِينَ بَعْدَ ٦ سِنَوَاتٍ وَأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ قَضَتْهَا بَيْنَ السِّجْنِ الْحَرْبِيِّ  
وَسِجْنِ الْقَنَاظِرِ .. ثُمَّ تَزَوَّجَتْ مِنَ الدُّكْتُورِ حَمْدِيِّ مَسْعُودِ طَبِيبِ الْقَلْبِ وَانْتَقَلَتْ مَعَهُ لِلْإِقَامَةِ  
بِفَرَنْسَا .. حَتَّى تُوَفِّيَتْ فِي ١٧ يُولْيُوِيَّةِ سَنَةِ ٢٠١٢ م. أَمَّا أَخُوهُمُ الْمُفَكِّرُ الْإِسْلَامِيُّ الْمَعْرُوفُ  
مُحَمَّدُ قَطْبٍ فَقَدْ تُوَفِّيَ بَعْدَهَا بِعَامَيْنِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ ٤ إِبْرَيْلِ سَنَةِ ٢٠١٤ م .. وَلَكِي نُلَمِّحُ  
بِسِيرَةِ مُحَمَّدِ قَطْبٍ- هَذَا الْمُفَكِّرُ الْإِسْلَامِيُّ الْعَظِيمُ ؛ فِي الْجِهَادِ وَالْإِجْتِهَادِ وَالْمَعَارِكِ الْفِكْرِيَّةِ  
الَّتِي خَاضَهَا فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَالِدِّفَاعِ عَنِ الْإِسْلَامِ- نَحْتَاجُ إِلَى مَقَالَةٍ أُخْرَى ، بَلْ كِتَابٍ  
كَامِلٍ.

لَمْ يَكُنْ سَيِّدُ قَطْبٍ عَمِيدَ الْأُسْرَةِ فَحَسَبٍ- وَلَكِنَّهُ كَانَ عَائِلَهَا الْوَحِيدَ بَعْدَ أَنْ أَلَمَّتْ بِأَبِيهِ  
ضَانِقَةً مَالِيَّةً ؛ فَاضْطُرَّ أَنْ يَقْطَعَ دَرَأَسَتَهُ وَيَقْبَلَ وَظِيفَةَ مُتَوَاضِعَةً لَا يَزِيدُ رَاتِبَهَا عَنْ سِتَّةِ

جنيهاً في الشهر ، أضاف إليها ما كان يحصل عليه من مكافآت مالية من نشر مقالاته الصحفية ولم تكن بالشيء الكثير .. وتحولت مهمته إلى إنقاذ الأسيرة من الضياع.. ولكنه كان شديد الطموح محباً للعلم ؛ فاستأنف دراسته الجامعية بكلية دار العلوم - وهو ما يزال يمارس عمله - فلما تخرّج التحق بوزارة المعارف حيث ارتقى بسرعة في درجاتها وبرز تفوقه فابنته الوزارة في بعثة دراسية إلى أمريكا لمدة عامين ..

لم يتصل قبلها بحسن البناء إلا سماعاً ، ولكن أثار عقله واقعة عجيبة شاهد فيها كيف استقبل الأمريكيون خبر اغتيال حسن البناء سنة ١٩٤٩م باحتفال وفرح شديدين فبدأ يلتفت إلى الأمر ويبحثه .. وانتهى إلى قرار بأن ينضم إلى جماعته ويدافع عن تراثه الفكري فلما عاد إلى مصر أشرع قلمه في معركة صحفية سياسية هائلة كانت تعرضه باستمرار لخطر الاعتقال على ذمة التحقيق.. وعلى الرغم من أن التجربة قد مرت دون أخطار حقيقية فقد كانت أشبه بالإرهاص لما بعدها.

فلما انفجرت ثورة العسكر سنة ١٩٥٢ نشأت بين قياداتها وبين سيد قطب علاقات طيبة في أول الأمر .. إلا أن مسيرتها سرعان ما شرعت في الاضطراب ؛ إذ اتخذت وجهةً معاكسةً تنذر باقتراب تصادم وشيك بينها وبين الإخوان المسلمين.. وهكذا استمر الخطر يقترب ويتفاقم حتى كانت مسرحية الإسكندرية الشهيرة في أكتوبر سنة ١٩٥٤م ، أُعتقل بعدها سيد مع الموكب الأول من شهداء الدعوة ثم جاء دور أخيه محمد بعد أيام وأُتيح لهما أن يشهدا من فنون التعذيب ما لا يخطر على بال إنسان. وقد ألحق كل من الأخوين بمكان من السجن الحربي بعيداً عن الآخر ، وحيل بينهما حتى لا يعرف أحدهما عن الآخر شيئاً .. ثم أفرج عن محمد قطب بعد فترة غير طويلة وبقي سيد في قبضة الجلادين عشر سنوات .

فلما تم الإفراج عنه تلقى سيد قطب ذلك الإفراج بكثير من القلق، إذ كان يحس في قرارة نفسه أنهم لم يخلوا سبيله إلا وهم يدبرون له أمراً أشدَّ سوءاً من السجن ، وقد كان ما توقعه ؛ فما أن انقضى على مغادرته السجن الحربي عام واحد حتى اضطربت الأمور كراً أخرى، وتيقن آل قطب أن المؤامرة تحدق بهم من كل جانب .. فلما شرعت الطغمة العسكرية في اعتقالات عام ١٩٦٥م [غير سبب حقيقي] أعيد سيد وأخوه محمد معه إلى السجن.

يصف محمد قطب هذه الفترة من البلاء الذي حلّ بالأسيرة في بعض كتبه .. قال: قضيت بالسجن ست سنوات متصلة انتهت عام ١٩٧١م وكان نصيب أخي سيد قطب الإعدام شنقاً بعد محاكمة صورية مع ثلة من كرام الشهداء وقتل في هذه المجزرة واحد من أبناء أختنا أثناء التعذيب دون إعلان .. واعتقلت شقيقتي الثلاثة ومنهن الكبرى أم ذلك الشهيد .. وعذبت الشقيقة الصغرى [يقصد حميدة قطب] ثم حكم عليها بالسجن عشر سنوات .. وتعرض الجميع لحملة ضارية من التنكيل الذي لا يخطر على بال إنسان .. ويتابع محمد قطب قائلاً: وكان ذلك كله جزءاً من الحرب المسلحة على الإسلام يقودها نيابة عن الصليبية العالمية والصهيونية الدولية أناس يحملون أسماء مسلمين...!

لقد حاول عبد الناصر احتواء سيد قطب في بداية الثورة بإسناد وزارة المعارف إليه ، فكان رفضه إياها من الأسباب المباشرة لتلك المحنة .. وهي حقيقة واحدة من الحقائق الكثيرة المتعلقة بذلك الصراع العنيف الطويل بين العسكر والإسلاميين .. إلا أنها لم تكن السبب الأساسي في المحنة ؛ وإنما كان السبب هو اختلاف الطريق ؛ ذلك الاختلاف الذي ظن العسكر أنهم يستطيعون تجاوزه فيما يتعلق بسيد قطب .. فلما تبين لهم إصراره على الحق وصلابته في دين الله واستحالة احتوائه أتموا خطتهم الموقرة وكان ما كان ! .. وأكبر دليل على افتعال الصراع والخصومة غير المبررة إلا الانفراد بالسلطة وفرض الدكتاتورية على الشعب ؛ والتخلص من أكبر قوة معارضة لمخططاتهم الاستبدادية- هو استمرار محاولة احتواء سيد قطب حتى آخر لحظة ؛ فبعد إصدار حكم الإعدام عليه سنة ١٩٦٦م عرضوا عليه أن يعتذر للرئيس المصري -في وقتها- جمال عبد الناصر: بأن الإخوان كانوا مخطئين .. ومقابل ذلك لن تلغى أحكام الإعدام عن كل المحكومين فحسب ؛ بل سيفرج عن المعتقلين جميعاً وبذلك تنتهي القضية كلها .. فلما رفض سيد قطب العرض مضوا إلى آخر الشوط بتنفيذ حكم الإعدام فيه شنقاً.

من أقوال سيد قطب الحكمة التي يؤكدها الواقع الذي نعيشه -حتى اليوم-  
في العالم العربي:

"ما يخدع الطغاة شيءٌ كما تخدعهم غفلة الجماهير، وذلتها، وطاعتها، وانقيادها .. وما الطاغية إلا فرد لا يملك في الحقيقة قوةً ، ولا سلطاناً .. وإنما هي الجماهير الغافلة الذلول، تمطي له ظهرها فيركب ..! وتمد له أعناقها فيسحب ، وتحني له رؤوسها فيستعلي..! وتتنازل له عن حقها في العزة والكرامة فيطغى..! والجماهير تفعل هذا مخدوعة من جهة ، وخائفة من جهة أخرى .. وهذا الخوف لا ينبعث إلا من الوهم ؛ فالطاغية - وهو فرد - لا يمكن أن يكون أقوى من الألوف والملايين، لو أنها شعرت بإنسانيتها ، وكرامتها ، وعزتها ، وحريتها."

myades34@gmail.com

أشهر المقال في ٢٧ يولية ٢٠١٧م بجريدة الشعب